القتل المفرط في الحملة الصليبية الاولى وأثره في التغيير الديموغرافي في بلاد الشام (٤٩٠-٥٢١هـ/١٠٩٧-١١٢٧م)

Excessive Killing in the First Crusade and its Impact on Demographic Change in the Levant (490-521A.H\1097-1127A.D.)

بسمة سالم أحمد
د. صفوان طه حسن
أستاذ
جامعة الموصل- كلية التربية للعلوم الإنسانية – قسم التاريخ

Basma Salim Ahmed
Dr. Safwan Taha Hassan
Professor
University of Mosul-College of Education for Human Sciences-Department of History

Basmasalim1988@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/١٠/٣١ تاريخ القبول ٢٠٢٢/١٢/٨

الكلمات المفتاحية: الهجرة، القتل المفرط ، الحملة الاولى، التغيير الديموغرافي ، بلاد الشام

Keywords: migration , Excessive killing , First campaign, Demographic change , Levant

الملخص

بعد تعرض بلاد الشام لغزو الصليبيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، اتضحت نواياهم وجاءت على عكس مايزعمون بانها حروباً دينية، فكانت اولى ممارساتهم عمليات القتل المفرط التي نفذوها بحق المسلمين في بلاد الشام في الحملة الصليبية الاولى، ونتيجة لعمليات القتل والمجازر الوحشية التي اقترفها الصليبيون بحق السكان في المناطق التي سيطروا عليها فضلاً عن سرقة اموالهم من ذهب وفضة وزيوت وحبوب، هاجر السكان من المدن التي سيطر عليها الصليبيون بأتجاه العراق وحلب ودمشق، بحثاً عن الامان، وسلط الباحث الضوء على اوضاع الناس الصحية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد المهجر وماحل بهم من امراض نفسية وجسدية ناهيك عن البطالة نتيجة تركهم لأعمالهم، وقد كان لهذه الظروف دوراً في تحرك رجال الدين وحث الناس على الجهاد ضد الصليبيين.

Abstract

After the Levant was invaded by the Crusaders in the fifth and sixth centuries AH / eleventh and twelfth centuries AD, their intentions became clear and came contrary to what they claim are religious wars, so their first practices were the excessive killings they carried out against Muslims in the Levant in the First Crusade, As a result of the brutal killings and massacres committed by the Crusaders against the population in the areas they controlled, as well as the theft of their money of gold, silver, oils and grains, the population migrated from the cities controlled by the Crusaders towards Iraq, Aleppo and Damascus, in search of safety, and the researcher highlighted the health, social and economic conditions of people in the diaspora and their psychological and physical diseases, not to mention unemployment as a result of leaving their jobs, and these conditions had a role in the movement of clerics and urged people to Jihad against the Crusaders.

المقدمة

كان لدعوة البابا أوربان الثاني(Urban ll) في مجمع كليرمونت(Clermont)–جنوب فرنسا– عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، للاستعداد لتجهيز حملة صليبية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وشن هجوم استيطاني من قِبل الغرب الأوروبي بهدف تهجير المسلمين من بلادهم واستيطان الصليبيين بدلاً عنهم انقاذاً اجتماعياً واقتصادياً للواقع الاوربي المتهالك من ذلك تخليص الامراء والفرسان الذين باتوا بلا سلطة ومهددين بالانحدار الى طبقات اقتصادية واجتماعية متدنية المستوى، وتزامنت هذهِ الحروب مع ما كان يحدث في البلاد الإسلامية من حالة تمزق وانقسام سياسي ومذهبي وديني مما ادى الى عدم استقرار الامور في هذه البلاد وعدم وجود اتحاد سياسي بين الجبهات الإسلامية بوجه الحملة الصليبية الاولى التي وصلت الى بلاد المسلمين عام(٤٩٠هـ/١٠٩٧م) وقد نجحت في غزو المنطقه وتكوين كيانات سياسية.

يهدف البحث الى التركيز على ابشع المجازر التي اقترفها الصليبيون في الحملة الصليبية الاولى والاثار المترتبة عليها وماهي اهم المدن التي تعرض سكانها للقتل المفرط؟ والى اين هربوا؟ وكذلك محاولة تقصي النتائج والاثار المترتبة على هذهِ الهجرات.

المطلب الاول

عمليات القتل المفرط اثناء المعارك والاستيلاء على الاراضي

توج نجاح الغرب الأوروبي في الدعوة إلى الحروب الصليبية ضد الشرق الإسلامي، وخاصة بلاد الشام، بخطاب البابا أوربان الثاني(Urban ll)[١]، الذي جمع فيه طموحات القادة الأوروبيين وكبار السادة الإقطاعيين الذين سعوا من هذه الحرب لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية، ومما سهل عليهم ذلك تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية في بلاد الشام في تلك الفترة، فعملوا على بث الخوف والفزع لدى الناس وارتكبوا بحقهم مجازر وحشية وهذا بدوره اجبر اهلها على الهجرة فسيطر الصليبيون على بيوتهم واموالهم ومؤنهم، فما حدث في مرعش[٢]، دليل على ذلك فقد اخلوها سكانها قبل وصول الصليبيين اليهم وهذا ما حدث مع بَغْرَاس(Baghras)[٣]، أيضاً فتركها سكانها بحثاً عن ملجيء لهم فتوجهوا صوب أنطاكية[٤]، المعروفة

(١) أوربان الثاني (Urban ll): وهو اوتو اللاجيري من رهبان دير كولوني وكاردينالاً وأسقفاً لاوستياً، كان صديق وتلميذ جريجوري السابع حامل لواء حركة الإصلاح الكلونية وقد نازع كليمنت الثالث على البابوية الى ان انفرد بها، شغل الكنيسة الكاثوليكية خلال الفترة(١٠٨٨هـ-١٠٩٩م). بطرس توديبود، تاريخ الرحلة الى بيت المقدس، نقله إلى الانجليزية جون هيوج هيل ولوريتال هيل، ترجمة: محمد عطية، (دار المعرفة الجامعية، الازاريطة، ١٩٩٩م): ٦٥.

(٢) مرعش: مدينة في الثغور بين بلاد الروم والشام لها خندق وسوران، وفي وسطها حصن عليه صور. شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، (دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م): ١٠٧/٥.

(٣) بَغْرَاسُ: مدينة في لحف جبل اللّكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين المقاصد إلى أنطاكية من حلب، في البلاد المطلة على نواحي طرسوس. الحموي، معجم البلدان: ٤٦٧/١؛ سعداء بشير علي العنزي، الحملة الصليبية الاولى وهجرات السكان في بلاد الشام (٤٩٠-٥٢١ / ١٠٩٧-١١٢٦م)، (كلية الآداب والفنون، جامعة حائل، ٢٠١٧م): ص٢٨١

(٤) انطاكية: تعد انطاكية اهم مركز بعد القدس، ولم يبقى من انطاكية سوى خرائب بالقرب من بلدة يلفتش على المنحدر الجنوبي لسلسلة جبال تدعى سلطان دغلاري في جنوب تركيا، بينها وبين حلب يوم وليلة وهي من اعيان البلاد وامهاتها. الحموي، معجم البلدان:

بمناعتها وحصانتها فلجئوا اليها خوفا من بطش الصليبيين[١]، ذكر ابن القلانسي عن هذه الحادثة في سنة(٤٩٠هـ/١٠٩٧م)((**نزلت عساكر الافرنج على بغراس واعادوا على اعمال أنطاكية عند ذلك عصى من كان في الحصون المعاقل المجاورة لأنطاكية وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها**))[٢]، فكانت مرعش أول مدينة يهجرها سكانها خوفاً من انتهاكات الصليبيين[٣]، وفي العام نفسه توجه الصليبيون صوب أنطاكية التي تقع شمال شرق المعرة لذا لجأ اليها كل المسلمين الذين فروا خوفاً من انتهاكات الصليبيين وحاصروها مدة تسعة اشهر مما ادى الى اشتداد البلاء على سكانها الاصليين واللاجئين ومع تواطئ احد حماة الابراج مع الصليبيين وهو من الارمن ويدعى فيروز اذ مهد الطريق لتسلل الفرسان الى داخل المدينة وعلى رأسهم بوهيمند(Bohemond)[٤] واقتحمت المدينة فجراً وتعرض سكانها لابشع انواع الذبح والقتل[٥]، ويذكر ابن القلانسي في سقوط أنطاكية((**ووجدوا الفرصة في برج من ابراج البلد مما يلي الجبل باعوه للافرنج واطلعوهم الى البلد منه في الليل وصاحوا عند الفجر فأنهزم ياغي سيان وخرج خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص**))[٦]، واستشهد في أنطاكية في ذلك اليوم ما لايعد ولا يحصى ونهبت

١/٣١٦،٣١٨؛عبد المؤمن ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والقلاع، تحقيق: علي محمد البجاوي(دار الجبل، بيروت،١٤١٢هـ/١٩٩٣م): ١/١٢٥.

(١) ابو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، (دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٣م): ٢١٨؛ العنزي، الحملة الصليبية: ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ: ٢١٨، ٢١٩.

(٣) العنزي، الحملة الصليبية: ٢٥٥.

(٤) بوهيمند الاول (١٠٥٠-١١١١م) هو ابن روبرت جيسكارد، وقد شارك مع أبيه في حروبه ضد الدولة البيزنطية عام ١٠٨٤م وقد ذهب ميراث ابيه الى أخيه غير الشقيق روجر بورسا، توديبود، تاريخ الرحلة: ٩١؛ مصادر تمويل الحملات الصليبية، (سعد خليل اسماعيل الشعيبات، ناشرون وموزعون، عمان، ٢٠٢١م): ١٩.

(٥) قاسم عبدة قاسم، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٥- ١٠٩٩)،(مصر، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٩م):١٦٦.

(٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ: ٢٢٠.

البلاد فهرب المسلمون وتسلمها الارمن[١]، ونتيجة لسقوط انطاكية وما اقتُرف من عمليات قتل وسلب ونهب عم الرعب في المناطق المجاورة، واستكمل الصليبيون مسيرهم فتوجهوا عام(٤٩٢هـ/١٠٩٩م) صوب(البارة)[٢]،(ومعرة النعمان)[٣]، وحاصروها وقاتلهم اهلها اشد القتال ولكن المدافعين عن الاسوار جراء ماسمعوه من بطش الصليبيين نزلوا وتحصنوا في دورهم[٤]، قال ابن القلانسي: ((**وصعدوا السور وانكشف اهل البلد عنه وانهزموا بعد ان ترددت اليهم رسل الافرنج في التماس التقرير والتسليم واعطاء الامان على نفوسهم واموالهم... وملكوا البلد وقتل فيه خلق كثير من الفريقين وانهزم الناس الى دور المعرة للاحتماء بها فأمنهم الافرنج وغدروا بهم**))[٥]، ويذكر رنسيمان في ذات السياق عن الافعال التي قام بها الصليبيون وتدل على مدة وحشيتهم اذ اقدموا على اكل لحوم البشر بعد نفاذ مالديهم من طعام وخلوا المناطق التي حولهم من المؤن[٦]، ونقض الصليبيون العهد الذي اعطوه لسكان المعرة اذ قتلوا حوالي عشرين الف انسان وقتلوا كل من اختبئ في ملجأ او جامع او سرداب.

بعد سقوط المعرة توجه الصليبيون الى(كفرطاب)[٧]، ثم واصلوا زحفهم الى بيت المقدس وذلك عام(٤٩٢هـ/١٠٩٩م) فحاصروها اكثر من اربعين يوماً وملكوها وبقوا الصليبيين يقتلون المسلمين مدة اسبوعين يذكر ابن الاثير في هذه الحادثة قائلاً: ((**ولبث**

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، (المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨م): ٢/٢٤٠.

(٢) الَبارَة: بُليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة. الحموي، معجم البلدان: ١/٣٢٠.

(٣) معرة النعمان: مدينة كبيرة من أعمال حمص بين حلب وحماة. الحموي، معجم البلدان: ١٦٩/٣.

(٤) عزالدين ابي الحسن ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (دار الكتب العربي، بيروت، ١٩٩٧م): ٨/ ٤٢٠.

(٥) ذيل تاريخ: ٢٢٢.

(٦) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحملات، ترجمة: نورالدين خليل، ط٢،(الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م): ١/ ٣٩٨.

(٧) كفرطاب: بلدة بين المعرّة ومدينة حلب في بريّة معطشة ليس لهم شرب إلّا مايجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. الحموي، معجم البلدان: ٤/٤٧٠.

الفرنج في البلدة اسبوعان يقتلون فيه المسلمين.... وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفاً منهم جماعة كثيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف))[١]، وقد ذكر غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب ما حدث عند هيكل سليمان وجاء الوصف على لسان الكاهن الحليم**((لقد افرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك وكانت الايدي والاذرع المبتورة تسبح كأنها تريد ان تتصل بجثث غريبة عنها.....))** كما قتلوا كل من كان موجود من نصارى ويهود ومسلمين وافنوهم عن بكرة ابيهم في ثمانية ايام[٢].

وقد جاء وصف بشاعة المجازر التي اقترفها الصليبيون بحق المسلمين في المصادر الأجنبية ويذكر الشارتري **((وفي ساحة هذا البنيان – يقصد المسجد الاقصى– شن رجالنا هجوماً عنيفاً على الشرقيين، فلم يكن لهم من سيوفنا مفر... وقطعت رؤوس ما يقرب عشرة الآف شخص... ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى))**[٣]، ولو ان احدهم اراد ان يمشي يجب ان ينظر الى موطئ قدميه لكي لاتغوص بالجثث والدماء التي وصل ارتفاعها الى الركبة[٤]، ويتباهى الصليبيون بقتلهم المسلمين واستخراج ما في امعائهم من الدنانير الذهبية كما احرقوا الجثث بعد ان جمعوها لكي يسهل عليهم الحصول على ما في احشاء الموتى من قطع ذهبية[٥]، ويتبادر السؤال الى ذهن الباحث كيف علم الصليبيون بابتلاع المسلمين لهذه القطع الذهبية؟ لربما وجود جواسيس في صفوف المسلمين ينقلون الاخبار اليهم، او حدث هذا الامر صدفة اثناء محاولتهم التخلص من جثث القتلى باحراقها فوجدوا هذه القطع الذهبية بعد ان اصبحت الجثث رماداً. لقد كان لهذه المجزرة وقع على العالم كله واصيب الجميع بالخوف والفزع[٦].

وبعد سقوط بيت المقدس وصل ماحدث فيها الى مسامع العساكر المصرية فجمع الوزير الفاطمي الافضل شاهنشاه جيشه وسار الى عسقلان فباغتهم الجيوش الصليبية

---

(١) الكامل: ٨/٤٢٥.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر،(مؤسسة هنداوي،مصر، ٢٠١٣م): ص٣٣٨.

(٣) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الى القدس، ترجمة: زياد العسلي، (دار الشروق، مصر، ١٩٩٠م): ٧٥.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحملات: ١/ ٤٣٥.

(٥) تاريخ الحملة: ٧٥.

(٦) رنسيمان، تاريخ الحملات: ١/ ٤٣٥.

((فهزموهم وقتلوا منهم من قتل وغنموا من المعسكر مال وسلاح وغير ذلك))[١]، فقتلوا كل من واجههم من اهل البلد وقدرت اعدادهم زهاء الفان وسبعمائة نفس فلم يسلم من ايدي الصليبيين الاطفال والاحداث والشيوخ والتجار[٢]. اما الرملة وصلها الصليبيون عام (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) وقد هرب اهلها قبل وصول الجيوش الصليبية بقيادة روبرت فلاندرز (Robert von Flanders)[٣]، فوجدوها خاوية ومهجورة[٤]، فهذا يدل على ان الصليبيين تمكنوا من تحقيق اهدافهم وزرع الخوف في قلوب السكان جراء عمليات القتل المفرط.

(١) ابن الاثير، الكامل: ٨/٤٢٧.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ: ٢٢٣.

(٣) روبرت كونت الفلاندز هو ابن روبرت الفريزي وقد خاض معارك كثيرة مع جنود الحملة الصليبية الاولى، توديبود، تاريخ الرحلة: ص٨٤.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحملات: ١/ ٤١٩.

المطلب الثاني

التغيير الديموغرافي بعد السيطرة على مدن الساحل

كانت سياسة الصليبيين تهدف الى تهجير سكان مدن بلاد الشام وذلك بارتكاب ابشع المجازر من اجل ترويعهم واجبارهم على ترك ديارهم خوفاً من ان يحدث معهم ماحدث بسكان المدن التي احتلها الصليبيون، ومن اجل تأسيس امارات صليبية وتوطين الاوربيين بدلاً عنهم، توجه الصليبيون عام(٤٩٣هـ/١١٠٠م) باتجاه ساحل البحر وسيطروا على حيفا بعد ان حاصروها حصاراً شديداً واخذوها بعد ارتكابهم مجزرة مروعة بحق سكانها[١]، ثم اكملوا طريقهم باتجاه ارسوف[٢]، وحاصروها براً وبحراً وضيقوا عليها فعجز اهلها عن الدفاع عنها فسلموها وغادر سكانها الى عسقلان[٣]، وبعدها توجهوا الي قيسارية[٤]، التي صمدت مدة خمسة عشر يوماً ولم تستمر المقاومة طويلاً فطلبوا الامان وسُلمت للصليبيين وغادروها اهلها بسبب جرائمهم يذكر الشارتري((**لم يبقى الا قلة ضئيلة من الذكور ولكننا استبقينا كثيراً من النساء فقد تجدر الافادة منهم على الاقل في دفع الطواحين**))[٥]، وقد وقعت افظع المذابح في الجامع الكبير إذ اختبئ الناس طلباً للرحمة لكن الصليبيين قتلوهم بلا رحمة ولم يستثنوا احد، قتلوا الرجال والنساء والاطفال واصبحت ارضية الجامع بحيرة من الدماء[٦]، ويبدو ان سبب النزوح الجماعي للسكان كان بسبب ما تعرض لهُ نساؤهم فضلاً عن اساليب التعذيب والتنكيل والسجن حيث يذكر السمعاني الذي زار المدينة عندما كانت تحت حكم الصليبيين((**دخلتها يوم الجمعة وقت الصلاة فلم أجد بها من المسلمين الا رجلاً واحداً واهلهُ، واستولت عليها الفرنج**))[٧]، ويبدو ان سبب قسوة الصليبيين في معاملة سكان قيسارية من

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ: ٢٢٥.

(٢) أرسوف: هي مدينة فلسطينية، تقع على ثلاثة فراسخ جنوب قيسارية تم السيطرة عليها من قِبل الصليبيين (٤٩٥هـ/١١٠١م). بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة وتعليق: سعيد عبدالله البشاوي، مراجعة وتدقيق: مصطفى الحياري، (دار الشروق، عمان، ١٩٩٥م): ١٦٢.

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة: ١١٣.

(٤) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام وهي من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة ايام. الحموي، معجم البلدان: ٤٢١.

(٥) تاريخ الحملة: ١١٤، ١١٥.

(٦) رنسيمان، تاريخ الحملات : ٢/ ١٠٦.

(٧) عبدالكريم بن ابي بكر منصور السمعاني، الانساب، تقديم وتعليق: عبدالله بن عمر البارودي،(دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨م): ٤/٥٧٥؛جلال حسني سلامة، التهجير القسري

اجل بث الرعب واجبار عكا[١] على التسليم ومغادرة المدينة حيث استعصت على الصليبيين قرابة ثلاث سنوات مما دفعهم على الاستعانة بالأسطول الجنوي الذي تالف من سبعين سفينة حربية[٢]، ثم توجه بلدوين الأول(Bldwn I)[٣]، بعد ذلك الى ميناء عكا التابع للدولة الفاطمية وفرض الحصار براً وبحراً بمساعدة الأسطول الجنوي واستمر الحصار عليها مدة عشرين يوماً واشتد الحصار عليها مما دفعهم الى تسليم المدينة مقابل الأمان[٤]، وافق الصليبيون وكانت من شروط التسليم ان يسمحوا لمن أراد المغادرة التوجه أينما يشاء ومن يريد البقاء فرض عليه أتاوة معينة يؤديها للملك الصليبي، فغادر الوالي الفاطمي (زهر الدولة بن بنا الجيوشي)[٥]، المدينة متوجهاً الى دمشق وثم مصر أما سكان عكا الذين غادروا فقد اعترضهم الجنويون وهجموا عليهم دون احترام الأمان الذي منحوهم إياه فقتلوا الكثير منهم واستولوا على ممتلكاتهم وذلك عام(٤٩٧هـ /١١٠٤م)[٦]، وبعد سيطرة الصليبيين على الكثير من مدن بلاد الشام وتهجير سكانها بعد ان تعرضوا لمجازر بشعة ومصادرة املاكهم، ادى هذا الامر الى استقرارهم فيها على الرغم من قلة عددهم اذ يصف وليم الصوري اعداد الصليبيين في بيت المقدس بقوله: ((**وكانوا قليلي العدد، قلة ملحوظة ويعيشون في فقر مدقع حيث أنهم كانوا أقل ان يشغلوا شارعاً من شوارعها**))[٧]، فلهذا نجد إن بعض المؤرخين المعاصرين وصفوا

لسكان فلسطين في العهد الصليبي، (جامعة القدس المفتوحة، فلسطين،مجلة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، م١٣،حزيران٢٠٠٨م): ٢٠٥.

(١) عكا: مدينة كبيرة وثغر من ثغور المسلمين في بلاد الشام قريبة من طبرية وهي على الساحل وفيها مرفأ للسفن. ابو عبدالله محمد عبدالله الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: احسان عباس، ط٢، (مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م): ٤١٠

(٢) سلامة، التهجير: ٢٠٥.

(٣) بلدوين الأول: هو الاخ الاصغر لجودفري ومؤسس إمارة الرها وملك مملكة بيت المقدس خلال الفترة (١١٠٠- ١١١٨م). توديبود، تاريخ الرحلة: ٦٨.

(٤) الشارتري، تاريخ الحملة:١٣٠.

(٥) اسمه بنا ولقبه زهر الدولة الجيوشي نسبة الى أمير الجيوش بدر الجمالي او ابنه. ابو الفداء عماد الدين اسماعيل، المختصر في اخبار البشر،(المطبعة الحسينية المصرية، مصر، ١٩٦٨م):٢/ ٢١٧.

(٦) ابن القلانسي، ذي تاريخ: ٢٣٢.

(٧) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، (الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، ١٩٩١م)،: ٢/ ٣١٧، ٣١٨.

بلدوين الأول(٤٩٥-٥١٢هـ/١١٠١-١١١٨م) ببعد النظر بعد موافقتهِ على استراتيجية جديدة تقلل من الإبادة والتهجير الجماعي لسكان المدن وقرى بلاد الشام فاصدر قرار شجع فيه المسيحين فيما وراء نهر الاردن في وادي موسى[١]، وحوران[٢]،على القدوم الى بيت المقدس ومدن بلاد الشام[٣]، لم يكتفي الصليبيون بتهجير سكان مدن بلاد الشام واستيطانهم بدلاً عنهم بل ذهب الامر الى اكثر من ذلك قاموا باستجلاب من يوافقهم في المذهب ويعتبر هذا من الامور الخطيرة التي ادت الى تغيير جذري في تركيبة السكان ومحاولة طمس الهوية الاسلامية.

وفي تلك الاثناء كان الصليبيون قد فرضوا الحصار على مدينة طرابلس[٤]، التي قاومت مدة ست سنوات اضطر أغلب أهلها الى الهجرة وخاصةً الفقراء بسبب ارتفاع الأسعار وقلة المؤن والاقوات، وخوفاً على اهلهم وأنفسهم فاضطر من بقي منهم في النهاية الى الاستسلام في عام(٥٠٢هـ /١١٠٩م) مقابل منحهم الأمان ليذهبوا أينما يشاؤوا، ويذكر الشارتري((**سمح للملك ورجاله ان يدخلوا جزء من المدينة، واندلعت فتنة وشغب في صفوف العامة من اهل جنوى لامر ما فتسلوا الحبال والسلالم ودخلوا المدينة وقطعوا رأس اي شرقي صادفوه على ان الحماية قدمت لاولئك الذين كانوا على مقربة من الملك بموجب الاتفاقية التي عقدها**))[٥]، ولربما يكون الذي نجا من بطش الصليبيين هو والي المدينة وفق اتفاق بينه وبينهم.

---

(١) وادي موسى: وهو واد في قبلي بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز، وهو وادي كثير الزيتون. الحموي، معجم البلدان: ٥/ ٣٤٦.

(٢) حوران: كورة واسعة من اعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار. الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٣١٧.

(٣) الحروب الصليبية: ٢/ ٣١٧، ٣١٨.

(٤) طرابلس: وتسمى ايضاً مدينة إياس وهي على شاطئ البحر في شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة ايام الى موضع يعرف يبني السابري وفي القبلة مسيرة يومين الى حد هوارة. الحموي، معجم البلدان: ٤/ ٢٥.

(٥) الحروب الصليبية: ١٤٥.

المطلب الثالث

اوضاع السكان في بلاد اللجوء

تركت الهجرات السكانية اثاراً سلبية على مختلف الاصعدة، فضلاً عن المصاعب التي واجهت المهاجرين وتمثلت بقطعهم لمسافات طويلة وتحملهم الظروف المناخية الصعبة والطرق الوعرة اذ اضطروا ان يسلكوا طرقاً بعيدة ونائية خوفاً من مراقبة الصليبيين لهم، الذين كانوا يستخدمون شتى انواع التنكيل والتعذيب مع من يقع في ايديهم من المهاجرين وهذا ما حدث مع مهاجرين ارسوف بعد ان وقعوا بأيدي الصليبيين فقتلوا بعضهم ومثلوا بجثثهم، والبعض الاخر تم زجهم في السجون(١).

ومن المشاكل الاخرى التي واجهها المهاجرون فيما بعد، قلة الأموال والنقود التي كانت مهمة لتأمين مستلزمات العيش من مأكل ومشرب ومسكن وبخاصةً مع التغيير الحاصل لديهم في المناخ مابين مدنهم ومدن اللجوء، فبقي الجوع والمرض والحاجة ملازمة للمهاجرين وهذه الظروف ادت الى هلاك العديد منهم بسبب الكثافة السكانية العالية في هذه المدن إذ كان من الصعب توفير العمل وتقديم المساعدات للاجئين(٢)، ومن الأمثلة على المهاجرين الاديب ابو عبدالله بن نصر بن صغير القيسري العكاوي وكان من الشعراء المجيدين والادباء المثقفين الذي انتقل بعد استيلاء الصليبيين على بلاد الساحل وبقي متنقلاً بين حلب ودمشق وتولى ادارة الساعات(٣)، التي بها، ومن الاسر التي عانت في بلاد اللجوء أُسرة(آل قُدامة الجماعيليّة)(٤)،ومن كان معهم في الهجرة من القرى المجاورة وبعد مضي أعوام على هجرتهم، تعرضوا لمتاعب صحية وأصيبوا بأمراض في مدينة دمشق، وذلك لارتفاع الرطوبة فيها

---

(١) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس(بطريرك عكا)، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي،(دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨م): ٣٣- ٣٤.

(٢) ابن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق: محمد أحمد دهمان، (ط٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠): ١/٧٤.

(٣) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: شكري فيصل، (دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٥٥م،): ١/ ٩٦

(٤) ويعودون بنسبهم الى عبدالله بن محمد بن قدامة بن مقدام المقدسي الدمشقي الجماعيلي احد ائمة وشيوخ المذهب الحنبلي. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، الاعلام، ط٥(دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م): ٤/ ٦٧.

وانتشار الأمراض والأوبئة بسبب الكثافة السكانية واكتظاظ أغلب الأحياء بالسكان ناهيك عن نقص الأدوية والعلاج، وسوء التغذية وانتشار المجاعة والفقر(١).

ويمكن طرح السؤال الثاني: كيف تمكن اللاجئون من ممارسة حياتهم في بلاد المهجر على الرغم من الظروف السيئة فيها؟ ويمكن الأجابة على هذا السؤال من وجهة نظر الباحث وعلى الرغم من قلة النصوص التاريخية المتوفرة التي تُظهر الظروف المعيشية التي عاشها اللاجئون في البلدان الاسلامية فيمكن ألأشارة الى انهُ هناك من تناول ظاهرة البطالة والفقر التي نتجت من عدم توفر فرص عمل للشباب والرجال سواء في زراعة الأراضي وفلاحتها او في الصناعة والتجارة ويعود السبب في ذلك إلى عدم وجود قدرة استيعابية لإعداد المهاجرين للعمل في هذهِ القطاعات والسبب الأهم هو عدم وجود الأمان واضطراب الأوضاع السياسية بسبب الغزو الصليبي مما كان لهُ آثار سلبية على الأوضاع الاقتصادية.

وكان للفاطميين جهوداً في هذا المجال من اجل التخفيف عن هذهِ المشكلة وما تسببهُ من مشاكل اجتماعية مثل انتشار ظاهرة السطو والنصب والسرقة فقامت بتوزيع مساعدات نقدية وعينية للمهجرين من سكان مدينة عسقلان(٢)، ومع مرور الوقت بدأ المهجرون بالتكيف مع وضعهم الجديد الذي فرض عليهم جراء الغزو الصليبي وامتهنوا حِرفاً مختلفة لتوفير لقمة العيش وان بعض المقدسيين الذين هاجروا الى حلب ومارسوا حرفة الزراعة مثل زراعة أشجار الكروم وصناعة الرُّبُّ(٣)، من ثِمارها(٤)، ومن اجل تحقيق الكسب المادي لقد أثرت الهجرة بإحداث تغيرات من الناحية الديموغرافية فقد انعكس الحال في المدن الإسلامية فالمسلمون أصبحوا أقليات في المدن الصليبية الكبرى(٥)، كما زادت اعداد اليهود في دمشق وقلت اعدادهم في الإمارات الصليبية، وذلك بسبب ما فعله بهم الصليبيون اذ اعتبروهم انهم قد قدموا المساعدة للمسلمين فلم يظهروا تجاههم اية رحمة واشعلوا النيران في كنيسهم الرئيسي الذي اختبئوا به واحترق جميع اليهود الذين في داخله(٦)، كما أصبحت المدن التي لجأ اليها

---

(١) الصالحي، القلائد الجوهرية: ١/٦٦- ٦٨.

(٢) سلامة، التهجير: ٢١٢.

(٣) الرُّبُّ: سُلافَةُ خُثارَةِ كل ثمرةٍ بعد اعتصارها، زنجبيل مُربّى ومُرَبب، محمد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، ط٢، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥م): ص٨٨.

(٤) بورشارد، وصف الأرض: ١٧٠.

(٥) قاسم عبدة قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م):٢٠١، ٢٠٣.

(٦) رنسيمان، تاريخ الحملات: ١/٤٣٥.

المهاجرون ومنها دمشق وعسقلان أصبحت تعاني من الازدحام الشديد وشكل ذلك عبئاً ثقيلاً على المدينة[١]، أما أحوال المدن التي هجّر الصليبيين سكانها قسراً وخاصةً المدن الساحلية أرسوف وحيفا وعكا فعانوا من قلة السكان، أما فيما يخص بيت المقدس فقد قتل الصليبيين أكثر سكانها كما هجروا من تبقى منهم[٢]، كما مر ذكرها سابقاً. وبسبب خلوا المدينة من السكان بدأ الصليبيون يشجعون النصارى الشرقيين الى الهجرة اليها من أجل إعادة إعمار المدن الصليبية، ان سياسة التهجير التي قام بها الصليبيين تعتبر من أهداف الحملة الصليبية الأولى وكان همهم القضاء على المسلمين وطردهم من البلاد والاستيلاء عليها[٣].

لقد عاش المهجّرون في المناطق التي لجئوا اليها ظروفاً صعبة حيث سرق الصليبيون أموالهم من الذهب والفضة والزيوت والحبوب، كما حصل مع سكان(عكا وقيسارية وحيفا) وغيرهم حيث أشارت المصادر ان الصليبيين قاموا بالتمثيل بالجثث وحرقها لانتزاع الدنانير الذهبية التي يخبئها الأهالي في ثيابهم وداخل احشائهم[٤]

وقد تنوعت فئات المهاجرين وطبقاتهم الاجتماعية، وكان الغالبية العظمى ممن يمارسون مهنة الزراعة[٥]، كما أمتهن اخرون العمل في قطاع الصناعة والتجارة على نوعيها الداخلية والخارجية، فقط تكيف المهاجرون مع ظروفهم الجديدة وامتهنوا مختلف الحِرف والمهن لسد حاجتهم وكما مر ذكرها سابقاً انهم مارسوا حرفة الزراعة وفي مقدمتها زراعة أشجار الكروم والزيتون[٦].

(١) يوسف درويش غوانمة، دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، (دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م)،: ١٤٥- ١٤٦.

(٢) الصوري، الحروب الصليبية، ٣١٨/٢؛ العنزي، الحملة الصليبية: ٢٦٧.

(٣) العنزي، الحملة الصليبية: ٢٦٧.

(٤) الشارتري، تاريخ الحملة: ١١٥.

(٥) شمس الدين ابن عبدالله الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (د.ط، بطرسبورغ، ١٨٦٥م): ٢٠٠.

(٦) سلامة، التهجير: ٢١٣.

وتجدر الإشارة أنه على الرغم من حالة العداء والحرب بين طرفي النزاع الاسلامي الصليبي فقد استمرت التجارة وقد أشار الى ذلك المؤرخ البرت دكس (Albertd Aix) ان تجار عسقلان كانوا يذهبون ببضائعهم الى مناطق الصليبين وبالمثل كان الصليبيون يذهبون الى هذهِ المدينة من اجل التجارة والتبضع دون خوف(١).

ومن فئات المُهجرين الاخرى وكانت تتسم بالقلة وممن كانت ظروفهم تسمح لهم بحضور مجالس العلم او يتميزون بدراية وخبرة في إدارة شؤون البلاد قبل غزو الصليبيين وقد أُتيحت لهم فرصة تولي ارفع مناصب في الدولة مثل القضاء والوزارة والكتابة وذلك بعد ملاحظتهم من كبار مسؤولي الدولة في البلاد التي هُجروا اليها وهذا حصل في فترات متقدمة في عهد نور الدين وصلاح الدين الايوبي(٢).

ولا ننسى دور العلماء في بلاد اللجوء وقد لعبوا دوراً كبيراً في توعية الناس وبث روح الجهاد ضد الصليبين ورفع روحهم المعنوية من اجل استرداد الاراضي الاسلامية ومقدساتها وقد اتخذوا خطبة الجمعة وحلقات الارشاد والوعظ وتذكير الناس من المسجد الاقصى وفضل زيارتهِ وكذلك في مواسم الحج لتذكير الناس بممارسات الصليبين في الأراضي المقدسة وذلك من اجل تحقيق الوحدة الاسلامية والانطلاق من اجل تحرير المسجد الأقصى(٣).

(١) بورشارد، وصف الارض: ١٧٠.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار،(دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م)،: ٧/ ٣٠٩٦

(٣) سلامة، التهجير: ٢١٣.

الخاتمة

توصلنا من خلال دراسة موضوع (القتل المفرط في الحملة الصليبية الاولى وأثره في التغيير الديموغرافي في بلاد الشام)، الى عدة نتائج لعل من ابرزها:

١. كان لانتهاكات الصليبيين وممارستهم لابشع طرق القتل اثر واضح في تحقيق اهدافهم وهي تفريغ مدن بلاد الشام من السكان.
٢. اظهرت ممارسات الصليبيين عكس ما يدعون وكشفت زيف الستار الديني الذي جاءوا من اجله الى البلاد الإسلامية وان في الحقيقة غايتهم هي الاستيطان والنهب والسلب.
٣. حاول الصليبيون إحداث تغيير ديموغرافي وذلك بقتل المسلمين وكل من يساعدهم وتوطين الصليبيين في المدن الشامية ولم يكتفوا بذلك بل جلبوا عناصر اخرى من شرق الاردن في محاولة لطمس الهوية الاسلامية.
٤. كان للهجرة اثر سلبي على السكان انفسهم وعلى البلاد التي لجئوا اليها فقد انعكس ذلك على الواقع الصحي والاجتماعي والاقتصادي لتلك المدن.

ثبت المصادر

أولاً: الكتب

- الاعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ط٥ (دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م).
- الانساب، عبدالكريم بن ابي بكر منصور السمعاني، تقديم وتعليق: عبدالله بن عمر البارودي،(دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨م).
- بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن احمد ابن العديم، تحقيق:سهيل زكار، (دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م).
- تاريخ الحملة الى القدس، فوشيه الشارتري، ترجمة: زياد العسلي، (دار الشروق، مصر، ١٩٩٠م).
- تاريخ الرحلة الى بيت المقدس، بطرس توديبود، نقله إلى الانجليزية جون هيوج هيل ولوريتال هيل، ترجمة: محمد عطية، (دار المعرفة الجامعية، الازاريطة ١٩٩٩م).
- تاريخ بيت المقدس(بطريرك عكا)، يعقوب الفيتري، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي،(دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨م).
- الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، (الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهره، ١٩٩١م).
- خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني، تحقيق: شكري فيصل، (المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٥م).
- ذيل تاريخ دمشق، ابو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد ابن القلانسي، تحقيق: سهيل زكار،(دار احسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٣م).
- رحلة ابن جبير، ابن جبير،(دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠١٠م).
- الروض المعطار في خبر الأقطار،ابو عبدالله محمد عبدالله الحميري، تحقيق: احسان عباس، ط٢ (مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م).
- زبدة الحلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله ابن العديم، تحقيق: سامي الدهان، (المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨م).
- القاموس المحيط، محمدالدين الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، ط٨، (بيروت – لبنان، ٢٠٠٥م).
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ابن طولون الصالحي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط٢،(مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م).

- مجمع الآداب في معجم الألقاب، ابو الفضل كمال الدين عبدالرزاق بن احمد ابن الفوطي، تحقيق: محمد كاظم، (مؤسسة الطباعة والنشر، إيران، ٢٠٠٤م) .
- المختصر في اخبار البشر، ابو الفداء عماد الدين اسماعيل، (المطبعة الحسينية المصرية).
- مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والقلاع، ابن عبد الحق، تحقيق: علي محمد البجاوي (دار الجبل، بيروت، ١٩٩٣م).
- معجم البلدان، شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الحموي، (ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شمس الدين ابن عبدالله الأنصاري الدمشقي، (د. ط، بطرسبورغ، ١٨٦٥م).
- وصف الأرض المقدسة، بورشارد، ترجمة وتعليق: سعيد عبدالله البشاوي، مراجعة وتدقيق: مصطفى الحياري، (دار الشروق، عمان، ١٩٩٥م).

ثانياً: المراجع

- تاريخ الحملات، ستيفن رنسيمان، ترجمة: نورالدين خليل، ط٢،(الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م).
- التهجير القسري لسكان فلسطين في العهد الصليبي، جلال حسني سلامة، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، مجلة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، م١٣، حزيران ٢٠٠٨م.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر،(مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٣م).
- الحملة الصليبية الاولى وهجرات السكان في بلاد الشام(٤٩٠-٥٢١/١٠٩٧-١١٢٦م)، سعداء بشير علي العنزي،،(كلية الآداب والفنون، جامعة حائل، ٢٠١٧م).
- دراسات في تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي، يوسف درويش غوانمة، (دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م).
- ماهية الحروب الصليبية، قاسم عبدة قاسم، (عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م).
- مصادر تمويل الحملات الصليبية، سعد خليل اسماعيل الشعيبات، (الآن ناشرون وموزعون، عمان، ٢٠٢١م).